وعسى أن تكرهوا شيئا

قال تعالى : { وعسى أن تكرهوا شيئا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُم} البقرة : 216

ليس منا من لم يكره أمراً من أمور حياته، ثم اكتشف بصورة وأخرى بعد حين من الدهر، طال أم قصر، أن تلك الكراهية غير الواعية بخفايا الأمور في البداية، تحولت إلى شكر وثناء للخالق عز وجل في النهاية، بعد أن رأى الخير كامناً في الأمر الذي كرهه قبل ذلك.

على المنوال نفسه، نجد أن أحدنا يحب أمراً ويسعى لتحقيقه بكل إمكانياته، لكن بعد حين من الدهر، طال أم قصر، سيجد أن هذا الذي أحبه وبذل جهده وسعيه، تحول إلى شر أو نكد أو هم، وتمنى ساعتئذ لو لم يسعَ في ذلك الأمر منذ البداية ! وما بين كراهية أمر أو محبته، ستكون دندنة اليوم، ومنها ننطلق ونحث في الوقت نفسه، ونحن في أواخر شهر التأملات والإيمانيات، على مدارسة قوله تعالى : { وعسى أن تكرهوا شيئا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} .

فمن منا يدري أين الخير؟

ومن منا يدري أين الشر؟

قصص ونماذج

الآية الكريمة جاءت ضمن سياق الحديث عن معركة الفرقان الأولى، معركة بدر، وما جرى قبلها وأثناءها وبعدها وفق تدبير إلهي محكم، على رغم أن الصحابة الكرام الذين شاركوا في المعركة، اعتبروا مجريات الأحداث شراً لهم، لأنهم قاب قوسين أو أدنى من الهلاك، فما خرجوا لمعركة، بل اعتراض قافلة تجارية، والفرق بين المهمتين كبير.

لكن مع تطورات الأحداث، تبين لهم بعد ذلك أن الخير كله فيما دبّره الله لهم، وهي المغزى الحقيقي للآية، ما يفيد أن كراهيتك لأمر ما أيها الإنسان، لا تعني أنك محقٌّ ومصيبٌ فيها، فقد يكون الخير بانتظارك وأنت لا تدري. وبالمثل يقال عن حب أمر ما والميل نحوه، فقد يكون الشر بانتظارك من خلاله وأنت لا تدري، وهكذا.

• لقد كان المؤمنون الذين خرجوا يوم بدر– كما يقول سيد قطب في ظلال القرآن- يطلبون عير قريش وتجارتها، ويرجون أن تكون الفئة التي وعدهم الله إياها هي فئة العير والتجارة، لا فئة الحامية المقاتلة من قريش. ولكن الله جعل القافلة تفلت، ولقاهم المقاتلة من قريش! وكان النصر الذي دوى في الجزيرة العربية ورفع راية الإسلام. فأين تكون القافلة من هذا الخير الضخم الذي أراده الله للمسلمين! وأين يكون اختيار المسلمين لأنفسهم من اختيار الله لهم؟ والله يعلم والناس لا يعلمون !

• لم يكن على الأرض حين ألقت أم موسى رضيعها في اليَم، من هو كاره لذلك الأمر أكثر منها، بحكم طبيعتها وفطرتها البشرية. لكنها بعد حين من الدهر، وجدت الخير كله كامن في ذلك الأمر الذي كرهته نفسها بادئ ذي بدء، ورأته شراً له ولها، مخافة غرقه في النهر أو وقوعه بيد فرعون ومن معه من الظلمة، والتعرض للذبح كبقية مواليد بني إسرائيل. لكن الخير الذي رأته أم موسى تنوّع، ومن ذلك أن وليدها نجا، ثم ترعرع في قصر عدوه، حتى صار نبياً ورسولاً من أولي العزم من الرسل.

• قد ترى ضمن مشهد إلقاء يوسف عليه السلام في الجب أو البئر، أنه أمر كان كله شراً وإجراماً وقسوة بالغة من إخوة كبار تجاه أخيهم الصغير، لتجد بعد حين من الدهر، أن الخير كان يكمن في تلك المؤامرة. خيرٌ تجسد بعد سنوات طوال، على شكل عزة وهيبة وسلطان ناله يوسف -عليه السلام– حتى طال ذلك الخير أمه وأباه، وكذلك إخوته الذين حاكوا ونسجوا تلك المؤامرة الشيطانية!

• قصة أخرى أخيرة عن موسى عليه السلام أيضاً، وشعوره يوم أن طلب من خادمه تحضير ما يسد رمقهم في ذاك اليوم، من بعد مسير متعب بحثاً عن الرجل الصالح، أو الخضر عليه السلام. يخبره خادمه أن السمكة التي كانت معهم وكانت هي طعام غدائهم، قد عادت للحياة وخرجت بشكل عجيب من سلة طعامهم ناحية البحر؟

لا شك أن شعور عدم الارتياح كان هو الشعور الابتدائي عند موسى- عليه السلام- قبل أن يتنبه إلى أن ما حدث– وإن كرهه للحظات– هو الإشارة التي كان ينتظرها، والدالة على قرب الوصول لمبتغاهما. نعم، لولا هذا الحدث غير المريح بداية، لما عاد موسى- عليه السلام- وخادمه لمواصلة السير وقص الأثر، حتى وجدا الخضر عليه السلام، ومعايشة قصص عجيبة عرفوا من خلالها جزءاً يسيراً من عميق علم الله، وهي كلها شواهد على موضوع حديثنا اليوم.

فقد كره موسى- عليه السلام- تخريب سفينة البحارة المساكين، وكره قتل الغلام بدون أي ذنب، وكره قيامهم بترميم بيت دون مقابل، في قرية لم يرأف بهم أحد من أهلها.. ليتبين له نهاية الأمر أن الخير في ما قام به الخضر، وليدرك أيضاً ومن سيأتي بعده من بني البشر، معنى قوله تعالى (والله يعلم وأنتم لا تعلمون).

كيف ننظر للشر؟

إن النظرة الإيجابية للابتلاءات والفتن هي المغزى من حدوثها، لأنها اصطفاء وتربية وإعداد لأمور عظيمة قادمة، حتى وإن اشتدت الابتلاءات وضاقت على الإنسان، فالنتيجة المرجوة بعد الصبر عليها والتعامل الحكيم معها، ستكون مذهلة إلى الدرجة التي يسعى المبتلى بعد رؤية النتيجة في الآخرة، أن يرجع إلى الدنيا تارة أخرى ليعيش تلك المحن والفتن والابتلاءات مرات ومرات، لعظيم نتائج الصبر عليها.. (قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين)، وإن كان هذا لا يعني تمني الفتن والابتلاءات والمحن، أو السعي إليها، لكن الأصل أن نسأل الله العافية من الفتن، ما ظهر منها وما بطن.

لكن إن جاءت محنة أو فتنة وأصابت أحداً منا، فالمطلوب ألا يظهر التأفف والضجر، بل يسأل الله الصبر والثبات أمامها. فربما تلك الفتنة التي نكره حدوثها أو وقوعنا بين أنيابها، تحمل بين طياتها خيراً كثيراً.

هذا الأمر بالطبع وفي الواقع العملي، ليس سهلاً كسهولة الكلام والكتابة والتنظير الذي نقوم به، ولكن نكتبه ها هنا من باب التواصي وتذكير النفس والآخرين بذلك، في زمنٍ كثرت الفتن والابتلاءات والمحن من حولنا بصور وأشكال متنوعة، والتي نسأل الله العظيم أن يخرجنا منها سالمين، وأن يجنبنا شرورها، ويثبت قلوبنا على دينه وطاعته.

خلاصة الحديث

الآية الكريمة التي بدأنا الحديث بها، وكنقطة أخيرة في موضوعنا، هي بمثابة بلسم شافٍ للمؤمن، يملأ قلبه بالأمن والأمان والطمأنينة، ويدفع عنه القلق والتوتر، الأمر الذي يدعوه دوماً وأبداً عند كل أمر يحزنه بادئ ذي بدء، أن يردد ويقول: لعله خير، لعله خير..

وتقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال من صلاة وصيام وقراءة قرآن ..

وكل عام وأنتم بخير.